الفصل الرابع:

الحل الأساس: بناء الطفولة

سبق أن ذكرنا أن العوامل الفاعلة في القضايا الكبرىٰ لا بدّ لها من أن تتعدد، وأن الجهود لحل الإشكالات الكبرىٰ لا بدّ أن تتنوع، وفي كل الحالات علينا أن ندرك أن كل عامل وكل جهد إنما يتوقف وزنه وأولويته علىٰ طبيعة الموقف، وعلىٰ ظروف الإشكال والتحدي والعلاقات المحيطة به. لذا فإنّ ما يقدّمه هذا البحث من رؤيةٍ وحلولٍ لتفعيل مشروع الإصلاح الإسلامي لا يلغي أهمية العوامل الأخرىٰ الكثيرة المؤثرة في أزمة كيان الأمة وقصور أدائها، ولا يلغي أهمية الجهود ومنطلقات العمل والإصلاح القائمة علىٰ مختلف الجبهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدعوية والدفاعية، وإنما يقصد به استكمال الأدوات المعرفية والفكرية والثقافية والتربوية حتىٰ يتم التصدي والتعامل مع كل العوامل المؤثرة في الموقف، واستكمال كل الجهود المطلوبة لتحقيق النجاح في حل الأزمة، واستعادة طاقة الأمة ودورها الحضاري الرائد، وبكل الطاقة والشجاعة الممكنة، مهما كان مذاق العلم بأوجه القصور حنظلاً، وكان طعم النقد الذاتي مراً.

والعامل الذي يستهدفه هذا البحث بالاهتمام هو في المحصلة الطفولة التي كانت وما زالت هي البُعد الغائب المهم في الفكر الإسلامي، الذي حال دون تفعيل مشروع إصلاح الأمة وتحريك كوامن طاقة التغيير فيها.

لقد أدىٰ الفصام بين النخبة الفكرية والسياسية -وما نجم عن ذلك من عجز- إلىٰ سيادة فكرٍ نصِّيٍّ نظريٍّ، ونتج عن ذلك سفسطائيةٌ مدرسيةٌ في

"ثقافة الخاصة"، وسطحيةٌ وخرافيةٌ في "ثقافة العامة"، و"نصِّيَّةٌ استظهاريةٌ" في "منهج التعليم"، و"سلطويةٌ استعلائيةٌ قهريةٌ" في "منهج التربية"، واستبدادٌ وتبديدٌ وقهرٌ في مزاولة السلطة والحكم، وتمزقٌ وصراعٌ في علاقات المجتمع، وقصورٌ وانحطاطٌ في أداء الفرد والمجتمع، وتقهقرٌ وانهيارٌ في الحضارة والعمران.

أولاً: طريق الإصلاح ومواجهة التحديات

على الرغم من أن أزمة الأمة في أصلها كانت سياسية اجتماعية ناجمة عن صراع التوجهات والفئات والعصبيات، فإنها تحولت إلى أزمة فكرية ثقافية حضارية تشوَّهَتْ معها الرؤيةُ والثقافةُ، وخمد معها الفكرُ، ثم كانت الكارثة حين تحولت إلى أزمة نفسية وجدانية تربوية تتعمق وتتوارث، وتقعد بالأمة عن القدرة على الإصلاح والتجديد، واستعادة زمام المبادرة والقدرة على مواجهة التحديات.

ولكي تحل الأزمة، ويتم الإصلاح، وتستطيع الأمة أن تتخطى العقبات وتواجه التحديات، لا بدّ لنا من البحث والدرس، وأن نأخذ بالتفكيك والتحليل العكسي؛ بهدف معرفة جوهر التحديات، ووجوه قصور الأداء التي تواجهها الأمة لكي نتعرف معالم وجوه التغيير والإصلاح المطلوب؛ بحث تتمكن الأمة من مواجهة هذه التحديات، واستعادة القدرة على إتقان الأداء، وتمكين دين التوحيد والاستخلاف والعدل والعمل والتكافل والأمن والسلام من أداء دوره في التقييم والتقويم والعطاء الحضاري الإنساني.

التحديات:

حتىٰ تصبح الجهودُ فعالةً والإصلاحاتُ منتجةً؛ ينبغي أن نعلم ماهية التحديات الكبرىٰ التي تواجه العقل المسلم والأمة المسلمة؛ ليكونَ ذلك دليلَ هداية وتوجيهاً لأعمال التغيير والإصلاح، ويكون المقياس نتائج حقيقية عملية؛ لا مجرد تأكيد دعاوىٰ وسرد تمنيات القدرة العلمية والتقنية (التكنولوجية).

والتحدي الأكبر الذي يواجـه العالم الإسلامي اليوم يجب مواجهته والتغلب عليه قبل أي شيء آخر، وهو شرط للنجاح في كل شأن آخر. إنه تحدي "القدرة العلمية التكنولوجية" التي أخضعتْ شعوبَ العالم الإسلامي وقهرتها. وإن وسائلَ "العولمة"[1] تُضاعِف من قدراتِ الأجنبي -بإمكاناته العلمية والتكنولوجية- علىٰ تحقيق مزيدٍ من التحكم في مقدرات الأمـة وقهرها واستغلالها، وتهميش دورها وثقافتها، وتمزيق كياناتها.

وامتلاك "القدرة العلمية التكنولوجية" لا يتحقّق باستيراد الأدوات والمعدات وسَوْق جموع الشباب إلىٰ غرف الدراسة، لكن ذلك يتم بتطوير العقلية العلمية، وتنمية القدرة النفسية الإبداعية. لقد استوردنا كل الأدوات

---

(١) يجب أن نفرق بين العالمية والعولمة؛ ذلك أن العالمية -في رأينا- هي صيغة تقرير حقيقة، ولذلك فهي في بنائها اللغوي تعني القدرات والوسائل العلمية التي تمكّن بني الإنسان من التواصل والتعارف والتبادل والتعاون. أمّا العولمة وهي صيغة تعني الإقحام فهي المصطلح الذي يُقصَد به ما يجري اليوم من استخدام القدرات والإمكانات العلمية من قبل قوىٰ التسلطِ والقهر في التسلّط علىٰ الشعوب الضعيفة وقهرها والتحكم بمقدراتها، وسوء استغلالها.

والمعدات، ولم تكن النتيجة إلا تكريس الروح الاستهلاكية لدى أبناء الأمة، وإهدار الموارد في شرائها، وحشد زرافات من "الحفَّاظ" التقنيين الذين يملأون المكاتب بالبطالة المقنعة، ذلك لأنّ الإشكالية في جوهرها إشكاليةٌ فكريةٌ ثقافيةٌ تربويةٌ قبل أن تكون قضيةً ماديةً كميةً.

لا بدّ لأيّة أمة تتطلع إلى الحصول على القدرة العلمية التكنولوجية الإعمارية من أن تمتلك فكراً إنسانياً اجتماعياً حياً، وعلوماً اجتماعية إنسانية حية، ومنهجيات علمية سننية تقوم على سواعد بشرية نابهة، تستند إلى هداية ثوابت الإيمان، وعلى أساس مبدأ غائية التوحيد الأخلاقية، وقيم العدل والتكافل والسلام، لا أن يكون همها الاستكثار والاستكبار وتوليد أسلحة البلاء والدمار. ولكي تتمكّن الأمة من مواجهة تحدي "العلم والتقنية" لا بدّ لها من التصدي لإشكالاتها الثقافية والتربوية حتى تستطيع أن توفر الشروط المنهجية والتربوية اللازمة للنجاح في امتلاك القدرة العلمية التقنية.

ثانياً: الإشكال الثقافي: فضُّ المعارك الوهمية وتصحيح المفاهيم

الإسلام دين العقل والاقتناع والعلم:

والإشكال الأول في هذا المقام هو الإشكال الثقافي، ولا بدّ من التصدي لتشوهاته ووجوه قصوره التي تغوص في أسس العقلية العلمية، وتشوّش المناهج السننية، وتُوهِن الطاقة الفكرية.

لقد خاطبت الرسالة العقل والضمير والوجدان، وسلكت طريق الإقناع العلمي، وحاربت طريق الجهل والمتابعة العمياء، إنه خطابٌ سأل

الأصحاب عنه، وجادلوا فيه، واعترضوا عليه، وآمنوا به إيمان فهمٍ وسلَّموا تسليم اقتناع، لا إيمان خوفٍ، ولا استسلامَ رعب وفزع، فكانوا هداة عاملين ومجاهدين أقوياء.

كان احترام عقل الإنسان واحترام اقتناع ضميره هما الصخرة المكينة التي بُني عليها عصر الرسالة، وكان تحريرُ الإنسان وتحرير ضميره غايةَ الإسلام وغايةَ فتوحات الإسلام: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥]. ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤].

عقوبة الردة لا تتعلق بالإيمان أو الاقتناع:

وما فزع أحد على عهد رسول الله ﷺ من تهديد الموت لمن يرتد؛ لأنّهم كانوا يدركون أنّ الإيمان لا يكون إلا عن اقتناع، وأن ذلك أصل من أصول الدين ومقاصده ومنطلقاته، ولا يمكن ليهود تآمروا للدخول في الإسلام تظاهراً، ليخرجوا منه بعد ذلك فتنةً للناس. فهي قضية مؤامرة وكيد، وليست قضية إيمان واقتناع، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢]، لذلك لم يروا في تهديد المتآمرين ووعيدهم إلغاءً لحق الإنسان في اقتناعه وإيمانه، ولم يأخذوا

أحداً من أهل الكتب والحضارات بالقهر والقسر في نظام حياته أو عقيدته، ليس فقط لعلمهم أنّ من آمن عن اقتناعٍ وعلمٍ ما كان له أن يستبدل بدين التوحيد والاستخلاف ومسؤولية قصد الخير خرافةَ الشرك والوثنيـة وجهالةَ الإلحاد والجحود، بل لأنّ هذه العقلية آمنت بالإنسان وبحقه في تقرير مصيره.

وهذا لا ينطبق إنسانياً وحضارياً على حال القبائل الوثنية العربية التي كان نظامها الاجتماعي في حالة بدائية.[1] فأَخْذُ قبائل العرب بمبدأ "إمّا حرب أو إسلام" إنّما هو أَخْذٌ بيد هؤلاء البدائيين الوثنيين إلى مجتمع الحضارة والنضج الاجتماعي والكرامة الإنسانية، وليس تنكُّراً لمبدأ حرية العقيدة.

القديم الجديد في المنهج: الديني والمدني:

هذا المثل يقودنا إلى إشكالية الجزئيـة والحرفيـة النصِّـيَّة، وضعف الضبط المنهجي في علاقات الأولويات والمبادئ والمنطلقات بالتفاصيل والأحداث في ثقافـة الأمـة، ودورها في تشويه العقلية العلمية، لأنه إذا لم تواجَـه هذه الإشكالية بصراحة علمية كاملة فسوف يظل الحوار الفكري حواراً عقيماً يدور في حلقات مفرغة تكرس التقابل والتعارض والاستقطاب بين مثقفي الأمـة ومفكريها، بين تقليدي وعصري، وديني ومدني وعلماني، وتُتْرَكَ الأمـة -بين صراع دِيَكَةٍ مثقفيها- في غيبوبةٍ وخمودٍ.

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **النظرية الإسـلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية**. ترجمة: ناصر أحمد المرشد البريك، الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، (د. ت.)، ص٢٠٢-٢١١.

إنَّ كثيراً من (الكوادر) الدينية سيطر عليها إحساس الخوف بالخطر بسبب الهجمة الثقافية الغازية، وبحكم ضعف القدرة على مواجهتها، ولذلك أصبح السائد في خطابها مسحة "الترهيب" والهجوم المعاكس على المدني والعلماني، ووصم المخالفين بالخروج والمروق. هذا من جهة، كما أنّ عدم اقتناع المدني بمقولات الديني ومناهج فكره وخطابه أدى بدوره إلى إرهابية خطاب المدني والعلماني وعدوانيته، ووسم الديني جزافاً بالتخلّف والجهل؛ لأنه لا ينحو منحاه في انبهاره وتقليده الأعمى "للآخر".

هذا التصادم أدّى إلى استقطاب هدّام صرف المدني والعلماني الجاهل عن معرفة مكنون دينه وهويته وحضارته؛ ليقفَ من الدين والتاريخ موقفاً يتراوح فيه بين العداء وعدم المبالاة، كما صرف الديني في الوقت نفسه عما حققته الحضارة الإنسانية من معارف، خوفاً منه على دينه وتراثه وتاريخه من روح الهزيمة والاستسلام للمستورَد من العلوم الإنسانية والعقلية، وبذلك أصبحت الأمةُ مشلولةً موزعةً بين مدرسة دينية حرْفية تقليدية، فيما تقابلها وتعارضها مدرسة مدنية علمانية تقليدية حرفية مستغرِبة، وقد بُني جوهر قصورهما وتعارضهما -في كثيرٍ من وجوهه- على الخوف والعجز والجهل.

لابدّ من نزع فتيل الإرهاب الفكري في الخطاب لدى كل الأطراف من أصحاب الفكر والمعرفة، ولابدّ من إزالة عجز الجهل في جوانب فكر المتعارضين. هذا هو السبيل إلى فتح باب الحوار وإعمال الفكر في القضايا المطروحة القائمة أمام الأمة والتحديات المشرعة في وجهها، وأن يحلّ محلَّ التصادم روحُ التكاتف في بناء المشروع الحضاري الإسلامي للأمة، المشروع

المرتفع على قوائم عقيدة التوحيد والاستخلاف، وقيم العدل والتكافل والسلام، وأداة العلم والعقل، وأداء الإتقان والإحسان، وهي قيم ومبادئ سامية، ومطلب صادق لكل مخلص من أبناء الأمة، وهدف يسمو على الأنساب والانتسابات.

مطلب (الكادر) المدني المسلم من حيث المبدأ هو الحصول على قدرة العلمي السنني، وموقف (الكادر) الديني الإسلامي في الحقيقة لا يتعارض في ذلك مع هذا المطلب. ومطلب (الكادر) الديني الإسلامي من حيث المبدأ هو هداية قيم الإسلام السامية، ولا يتعارض (الكادر) المدني المسلم مع هذه الغايات والمقاصد السامية. ولكنّ الإشكال يأتي حين ينطلق الفريقان في الحوار على غير أساس منهجي، ومن منطلقات وتصورات ومخزونات فكرية قاصرة مشوهة، لا تمثل قاعدة صالحة لفهم مشترك أو حوار بناء.

يجب تمهيد أرض الحوار ابتداءً، ومن ثَمّ الاتفاق على الثوابت، والاتفاق على الأهداف، والغايات، وعرض الإشكالات الأساسية لدى كل فريق بما يسمح بتبادل وجهات النظر وتبادل المعلومات المتعلقة بقضايا الخلاف وإدراك جوهرها، وإيجاد الحلول المناسبة لمعالجة إشكالاتها؛ بما يقيم أرضاً وأهدافاً مشتركة مبنية على الثوابت والغايات المشتركة، وبروح تقبُّل الآخر، وإدامة الحوار المثمر، والتعاون الخير معه، في وحدة حضارية إنسانية.

يتفق الدينيون الإسلاميون وجمهور المدنيين المثقفين على الإيمان بالله الخالق الأوحد، وهداية الوحي، ومقاصده في قيم العدل والخير، وكرامة الإنسان، ومسؤولية العمل، ويتفقون على طلب السنن، وواجب السعي،

وإتقان الأداء، ومسؤولية الفعل.

يتفقون على ضرورة امتلاك القدرة في العلم والتقنيـة، وامتلاك أسباب القوة الماديـة والمعنويـة، وضرورة الإصلاح، وتحريك كوامن الطاقة في الأمة، والتزام مكارم الأخلاق.

ولكنّ هذا الاتفاق يصبح أقرب إلى الأمانّي والتمني حين لا يؤهل الأطرافُ أنفسَهم للحوار والتواصل بشأنها، على أساس من العلم والمعرفة بما في يد كل طرف من الأطراف، سواء أكان ذلك في ميدان الدين والتراث والتاريخ الإسلامي أم في ميدان التراث الإنساني في علوم السنن الاجتماعية ومناهج النظر والبحث العلمي فيها.

تعاني الأمة الإسلامية في الحقيقة من علمانية عجيبة تتساوى فيها الحالة الفكرية للمدني وللديني؛ التي تنجم عن إصرار كل فريق منهما على الجهل بالآخر وبحصيلة علم الآخر وفكره وقدراته، مما يحيل الحوار إلى منابذة الجهلاء ومُلاحاتهم، ويؤدي إلى تعميق الخلافات فيما بينهم، وسد منافذ اللقاء، فيغيب ضمير الأمة ويخمد عزمُها.

لنبدأ بإيجاد جيل جديد من العلماء والمثقفين الذين يتحلون بعلم الوحي والشهادة، وبإدراك مقاصد الدين وقيمه، وكنوز التراث ودروسه وعبره، وبمعرفة علوم الإنسان والاجتماع والمواد، ومناهج السنن التجريبية؛ وليأخذ العلماءُ والمثقفون مناهجهم بتوسيع دائرة معارفهم، وامتلاك ناصية الحوار والتعاون المثمر. وعلى الجامعات ومراكز البحث العلمي أن تقدم المناهج

وتهدي إلى المصادر، وتطور المواد اللازمة لثقافة المسلم في جوانبها المعرفية الدينية الإلهية والسننية الإنسانية. وفي هذا المجال شهدتْ الساحةُ العلميةُ جهوداً جادّة رائدة جعلت التأصيلَ، وإسلاميةَ المعرفة، وإصلاحَ مناهج الفكر، قضيةً مطروحةً على الساحة العلمية الثقافية في العالم الإسلامي؛ بحيث تتبلور على أساسها أدبيات وحدة ثقافة الأمة وغاياتها، ومناهج فكرها، وأساليب تربيتها، وهي جهود يجب تنميتها وتطويرها.

من المطلوب أن يجلس الفرقاء معاً مزودين بمعرفة مقاصد الدين وقيمه وطاقات علوم السنن، وتحول دون تمكنهم من حسن الأداء وقدرة العلم والتقنية، وكيف تنقّى ثقافة الأمة من فكر الشعوذة والخرافة والخزعبلات، وكيف يواجهون شيوع السلبية والخنوع وضعف البُعْدِ العام في بناء شخصية أبناء الأمة.

اهتمامات المدنيين وملاحظاتهم المنهجية:

من أهم القضايا التي يختلف فيها الفرقاء الدينيون التقليديون والمدنيون المستغرِبون على غير أساسٍ؛ مسائل مثل: هل التزام المدنيين وطلاب المعارف الإنسانية المنهجَ العلمي السنني هو بالضرورة إنكارٌ لعوالم الغيب وتصريف الله لشؤون الكون وفق حكمته بما لا يحيط بكلياته منطق الإنسان وإدراكه؟ وهل يعني التزام العقل والسببية إنكاراً للغيب وما يتعلق به من أقدار الله في تصريف شأن الكون؟ وينشأ هذا الخلط على الجانبين كما يلي:

أ- حينما يتحدث الدينيون عن الدعاء والتوكل والتسليم والحكمة الخفية لأقدار الله في تسيير شؤون الخلق يلقون عادةً بالنصوص والشواهد،

ويقدمونها في خطاب وعظي، ويعرضونها مبتورةً عن صورتها الكلية، مُنْبَتَّةً عن إطاراتها المعرفية، وعن أبعادها الزمانية والمكانية، ودون أن يلقوا بالاً إلى السنن في الخلق وآثارها في الوقائع؛ لأنّ جُلَّ فكرهم لا ينفعل بقوى الحركة والفعل في المجتمع، فيأتي وقع قولهم في آذان المدنيين وكأنّه غيبة وعي وإلهاء عن واقع الحال. فالدينيون حينما يتوجهون إلى شعوب الأمة ويدفعونهم إلى ما يجب أن يفعلوه -جزافاً- لتغيير أحوالهم والتصدي لتحدياتهم، وفي أحيان أخرى يقع قولهم وكأنه مجاراةٌ لمشاعر جموع الناس المأزومة، فيكون مجرد تفجير لإحباطاتهم، دون إدراكٍ أو تقديرٍ لواقع حالهم، وإمكانات طاقتهم، ممّا يفجر على غير هدى أزماتهم؛ فتزداد معاناتهم، وتنهك كياناتهم، وتبدد طاقاتهم، وتضيع جهود البناء والإصلاح.

ب- وتأتي اعتراضات المدنيين والعلمانيين والمتغربين في آذان الدينيين وكأنّ تساؤلاتهم المشوبة بالرفض ومتابعة الأجنبي المستعمر إنكارٌ لقداسة الدين وما يتلوه الدينيون من نصوص، وإنكارٌ لعالم الغيب ولوجوه قدرة الله وعنايته في تصريف شؤون خلقـه.

وإذا كانت الأطراف عامة -ومن زوايا مختلفة- هي في الحقيقة على اتفاق في المبادئ والمنطلقات التي تؤمن بالله وسننه وتدعو إلى التدبر والعمل: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز."[1] فيكف يحدث هذا الخلطُ مع وجود هذا القدر المشترك بين أبناء الأمة، انطلاقاً من مظنة غيبة الوعي من

(١) القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٠٥٢، حديث رقم: ٢٦٦٤.

جانب، ومظنة الإلحاد والجحود من جانب آخر؟

إنّ مردّ هذا الخلط وهذا اللغط أنّ مُحْكَمَ القول والمنطلقات في الدين أصبحت دلالةُ كثيرٍ منها تضيع في حرفيات أكداسٍ من الروايات المتعلقة بأحداثٍ ومواقف تناثرت على مدى نصف قرن من الزمن، هو عهد النبوة والخلافة الراشدة؛ وقد استندت رواياتها إلى سلسلة جموع غفيرة من الرواة، تفاوتت درجات وعيهم وإدراكهم، وزوايا رؤيتهم وسلامة طوياتهم؛ على مدى قرنين من الزمان، على اختلاف البلاد والصفات والمشارب والولاءات، وما تعرضوا له -وتعرّضت له أجيالهم- من حروب وصراعات، وما توزعتهم من مصالح وتحزبات وعصبيات وآراء وغايات، مما جعل مهمة التدوين والتحقيق والموضوعية، والمؤثرات الواعية وغير الواعية فيها، من أصعب المهام؛ بعد مضي هذه العقود والقرون؛ التي يهولك أن ترى معها مدى الجرأة في التطاول على مقام الرسالة بالتحريف والكذب والوضع، ويصعب معها الضبط الكامل والتوثيق الدقيق.

إنّ من المهم لأهل العلم والمعنيين بدراسات توثيق النصوص أن يدركوا أنّ أمر النظر في النصوص، ولاسيّما نصوصُ السنة، والاهتمام بأمرها، وبحث قضاياها، وما يترتب عليها من الآثار، لم يعد مقصوراً على أصحاب الاختصاص في علم الرواية وعلم الفقه والقانون وحدهم؛ بل أضيف إليهم فئتان من الناس والاهتمامات:

الفئة الأولى: هي فئة عموم الأمة الذين أصبحوا -بسبب انتشار الثقافة، ووعيهم بمجريات شؤون حياتهم وما يؤثر فيها- يطّلعون ويقرؤون ويهتمون

بكثير من النصوص، وبأشكال مختلفة.

الفئة الثانية: هي فئة أصحاب الاختصاص العلمي في مختلف شؤون الحياة المادية والإنسانية الاجتماعية، الذين يحاكمون النصوص إلى خبراتهم وعلومهم وحصيلة معارفهم السننية. وبذلك أصبح فحص النص على أيدي هؤلاء يتم على أسس علمية سننية لا يقف عند شكليات الرواية وحرفيات السند، بل تتعداه إلى المتن والتطرق إلى فحواه ودلالاته، وردّه إلى أصوله وظروفه ووجوه الحق والإمكان فيه، والكشف عن الخفي من الظروف والأسباب والملابسات الممكنة.

إنّ اهتمامات الجمهور بشؤون حياتهم وما يؤثر فيها، واهتمام علماء السنن بتمحيص الفكر، يجب أن تقدَّر وتنمَّى، لا أن تقابل بالإنكار والرفض بحجة التخصص الضيق. ذلك لأنّ نطاق البحث العلمي ذاته ووسائله قد اتسعت وتغيّرت، وكثير من طلبة علوم الدين والتراث على جهل بها وبأدواتها ووسائلها.

الإمكانات الحديثة والمنهجية الشمولية في قضايا نقد المتن والسند:

إنّ ما روي من الأحاديث والسنن المعتبرة هو في حدود مئة ألف حديث، كثير منها تعددت رواياته بزيادة أو نقص أو اختلاف في اللفظ. وقد تتعارض الروايات ولا تستوي جميعها في مستوى الثقة بالرواية، فمنها الصحيح، ومنها الضعيف، ومنها ما قد يَعُدّه بعضهم من الموضوعات. وكثيراً ما يختلف تقويم النص الواحد والرواية الواحدة بين طلاب علم الحديث إلى حدّ يثير الحيرة

والتساؤل عن مدى موضوعية المنهج ودقـة تطبيقه، ومدى الحاجة إلى إعادة النظر فيه، والإفادة من إمكانات العصر العلمية في تطويره.

وبرغم ذلك فإنّ هناك مئات الألوف من مزعوم الحديث التي رُفِضَتْ، ولم تروَ، حتى إنّ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستقر بين يديه ما يقارب خمسمئة ألف حديث لا يقبل ولا يروي منها إلا حوالي خمسين ألف حديث، كثير منها يُعَدُّ من الضعيف، وهذا أمر مهم ومؤلم، يوضح الكمَّ الكبير من الروايات المكذوبة التي لا يُعْتَدُّ بها.

ومعرفة هذه الحقيقة، وإن ألقت ضوءاً على مدى الجهد الذي بذله علماء الحديث، والصعوبات التي واجهوها، توضح أيضاً الحالة النفسية والذهنية وقساوة الصراعات والتيارات التي كانت قد سرت في كيان الأمـة، ووجدت في التعبير الديني وسلاح القداسة وسيلةً رائجةً للمقارعة والانتصار، وسمحت بالتحريف، وبدسّ الإسرائيليات والخرافيات وسواها من الأهداف والأغراض العقدية والسياسية، وسمحت برواية هذا الكم الهائل من مزعوم السنة والحديث.

ومن المهم كذلك ملاحظة أنّ جُلَّ النصوص المروية، عدا عشرات من الأحاديث والسنن الفعلية التي تابعها -بحكم طبيعتها- جمهور الأمة، لا ترقى إلى درجة التواتر الذي يمكن معه الجزم بصحة الواحد منها، واستحالة الخطأ أو الكذب فيه، بل إنّ كثيراً من المروي لا يسهل أن يفهم لماذا يُروى آحاداً، وهو -بسبب عمومية موضوعه وأهميته وسعة مجاله- كان من المفترض أن يكون متواتراً، بل إنّ بعضه لا يخلو من التفاوت والتعارض -حتى للراوي

الواحد- في اللفظ وفي المبنى، مما لا يقبله العقل في كثير من الحالات.

إنّ زهد شيوخ عهد الرسالة وقادتهم في رواية الحديث، والحرص على عدم إشاعة تداوله كان لإدراكهم خطر سوء فهمه بسبب عدم إدراك الناس للظروف الزمانية والمكانية التي صاحبت أحداثه، والتي دونها يصعب إدراك القصد والدلالة، خاصة مع ندرة ما صحب الرواية من توضيحات للظروف الزمانية والمكانية والمقاصد التي تعلقت بها.

إنّ ما جرّ إلى روايات الآحاد والإكثار منها لدى المتأخرين، صحيحها وضعيفها -وبذلك القدر من التهافت- إلى جانب الأغراض السياسية والعقدية، هو أيضاً فكر العجز والعزلة؛ بهدف تغطية عجز الفكر بقهر القدسية، وهي ظاهرة تفاقمت طردياً مع عجز الفكر والنظر وقلة الخبرة والتجربة، فكلما زاد العجز الفكري وعدم القدرة على الاجتهاد لمتابعة المتغيّرات ازدادَ طلبُ النصِّ على حساب الفكر والنظر المقاصدي؛ مما يفسح المجال للتقليد الحرفي، حتى أصبح بعضهم يفضل الأخذ بالنص الضعيف على الأخذ بالرأي.

وما دار من خلاف حول كتابة الحديث -نهياً عنه أو سماحاً به- يدل على اختلاف وجهات النظر في أصل سلامة الإكثار من الرواية دون دراية، لعدم إدراك ظروفها المكانية والزمانية وما يتعلق بمجالاتها، فهل هي أحاديث من باب البلاغ؛ أي تبليغ الرسالة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢﴾ [المائدة: ٩٢]، أو هي أحاديث وتوجيهات تتعلق بدور الرسول ﷺ في الحكم وإدارة الدولة

والرعية والتعليم والتنوير فيما يخص الناس والمجتمع، يجتهد لهم فيها بحسب حالهم على ضوء هدي الشريعة المنزلة: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، أو هي طاعة في أمرٍ بعينه لم يفصِّله القرآن الكريم فبيَّنه الرسول ﷺ وفصّله من باب السنّة الفعلية، وهو ما نصَّ عليه القرآن بعينه بشأن الصلاة والزكاة؟ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦]. فالصلاة والزكاة ركنان من أركان الدين لم يتعرّض القرآن الكريم لتفصيل أدائهما، على عكس الصوم والحج اللذين وضَّح القرآن الكريم أساسياتهما في نصِّ متنه، وبذلك كانت السنّة النبوية، ولا سيّما الفعليةُ منها، هي المصدر الأساس بشأن أداء الصلاة والزكاة. أمّا ما كان من قول الرسول ﷺ وفعله متعلقاً بشؤون الحياة ومطالب العيش فتوضّحه الآية: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٦].(١)

كما يجب ملاحظة موقف الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ورجال الصف الأول منهم بشأن مَنْ تجرَّأ من آحاد الناس على رواية أقوال النبي ﷺ وتوجيهاته التي تعاملت مع الأحداث في ظروف بعينها، والحرص على بقائهم في المدينة حتى يتحدثوا فقط إلى مَنْ عاصروا العهد وأدركوا ملابسات الروايات.

---

(١) روى الإمام مسلم بسنده عن رافع بن خَديج أنه قال: "قَدِمَ نبي الله ﷺ المدينةَ، وهم يأبرون النخلَ، يقولون يلقَحون النخلَ، فقال: "ما تصنعون"؟ قالوا: كنا نصنعه. قال: "لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً". فتركوه، فنفَضتْ، أو فنقَصَتْ. قال: فذكروا ذلك لـه، فقال: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا بـه، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيٍ فإنما أنا بشرٌ". انظر:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٣٥، حديث رقم: ٢٣٦٢.

كما يجب تفهّم كليات ما ورد عن الرسول ﷺ ذاته في النهي عن كتابة حديثه أو السماح به، وما نمَّ عنه ذلك النهي أو السماح من مقاصد، لمواجهة ما أصاب ثقافة الأمة من عيوب، وما تواجهه من تحديات، وما انتهىٰ إليه كثيرون من سوء استخدام النصوص وعشوائيته، وجعلها مشاجبَ للخرافات والأساطير والأغراض والأهواء وانتصارات العداوات، ووسيلةً لقهر ضمير الأمة وإلجام عقلها وإرهاب وجدانها، وأداةً للحرب والصراعات، وعوناً وأداةً بيد الأعداء.

ويضاف إلىٰ إشكالات الرواية ما نلحظه من ضعف نقد المتن، لأنّ النقد الفعَّال إنّما ينبع من دراية الناقد العلمية بطبيعة الموضوع وخبرته فيه، وهو ما لا يتوفر لكثير من الدارسين في مجالات الرواية؛ إذ تقتصر دراساتهم عادة علىٰ جوانب لفظية وشكلية وقواعد مستظهرة، بل تكاد مقولة "يُعْرَف القول بالقائل" -عند كثيرين- تحلّ محلّ مقولة "يُعْرَف القائل بالقول"، حتىٰ رأينا -بسبب ضعف ملكة الدراية والنقد- كيف يروىٰ للقائل القول ونقيضه؛ بما لا يتفق في كثير من الأحيان مع روح الشريعة ومبادئ العقل أو الرؤية العلمية السليمة.

وقد بلغ ضعف ملكة التدبر والنقد حدّ إهمال قياس صحة متن الأحاديث بمقياس القرآن الذي هو الكلمة الجامعة المقدسة المحكمة الحاكمة، والبينة المتواترة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢]. وهكذا

تراجعتْ، في عصور انتشار فكر العزلة، مكانةُ القرآن الكريم الذي تتصف جُمْلَـتُـه بعموم التوجيه وتجريده؛ ليكون منبعاً للفهم والتوجيه والهدىٰ -علىٰ اختلاف الأحوال والمواقع والأزمان-، وحلّ مكانه كثيرٌ من نصوص الآحاد ذات الأبعاد الزمانية المكانية، الصحيح منها والضعيف، طلباً لراحة العقل من عناء التفكّر والنظر والاجتهاد ومواجهة المتغيّرات والمستجدات. يتضح هذا حينما نقارن الكمَّ الضئيلَ من نصوص السنّة؛ الذي استدل به الأئمة المجتهدون وفي مقدَّمتهم أبو حنيفة النعمان، والكمِّ الهائل الذي تعلو به -دون علمٍ أو درايةٍ أو تمحيصٍ- حناجرُ عامة صغار طلبةِ العلمِ.

وكثير من هذه النصوص كان من الأمور التي يصعب ضبطها وتحقيقها ومعرفة حقيقة رجالها الذين لم يرهم مدوّنو النصوص ولم يعاصروهم، مِـمَّنْ سبقوا عصرهم من رجال أسانيدهم، وما عُرفوا لديهم إلا بالسماع عنهم في عصور عمَّتها الأهواء والفرق والحروب والفتن.

نماذج في نقد المتن: علم الغيب وتلوث الثقافة:

ولا بأس في هذا المجال المهم من مَثَلٍ يدل علىٰ ما يواجهه الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية من إشكالات. فنحن نعلم أنّ المسلم يسعىٰ متوكلاً قوياً بإيمانـه، كاسباً بعمله، لا مكان عنده لكهانـة ولا عرافة ولا تنجيم ولا عيافة (الخط في الرمل) ولا طيرة ولا طرق ولا سحر ولا جبت، ولا أيّ شيء علىٰ شاكلتها من أمور الشعوذة والخرافة.[1] ومع ذلك نجد صحيح

(١) روىٰ أبو داوود في سننه بإسناد حسن عن قبيصة بن المخارق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "العيافة والطيرة والطرق من الجبت، وقال: الطرق هو طرق الطير تيمناً أو تشاؤماً، وقال =

مسلم يروي عن معاوية ابن الحكم أنّه قال: قلت: يا رسول الله، إنّي حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنّ منّا رجالاً يأتون الكهان، قال: فلا تأتهم. قلت: ومنّا رجال يتطيرون، قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم.[1] قلت: ومنّا رجال يخطّون، قال: كان نبي من الأنبياء يخطّ، فمن وافق خطّه فذاك.[2] فيأتي هذا النص وكأنّ رسول الله ﷺ يقر "الخط" وما يؤدي إليه -مما يقصد إليه السائل ولا شكّ- من زعم كشف الغيب الذي يعارض صريح القرآن.

وإذا صح ذلك فإنّ الأمر يدعو إلى العجب من أنّ رسول الله ﷺ، وهو مَن يوحى إليه، لم يعلِّم الناس الوجه الصحيح لضرب الرمل حتى يفيدوا، ويفيد رسول الله ﷺ، من هذا الوجه العجيب المؤدي -حسب هذا النص-

---

= أبو داوود: العيافة الخط (في الرمل). انظر:

- السجستاني. **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٩، حديث رقم: ٣٩٠٧.

وقال الجوهري في الصحاح: "الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك". انظر:

- الصالح، صبحي. **منهل الواردين شرح رياض الصالحين**، إستانبول: (د. ن.)، (د. ت.)، ص٩١٣.

(١) أي لا يمنعهم.

(٢) لمزيد من التفصيل، انظر:

- الصالح، **منهل الواردين شرح رياض الصالحين**، مرجع سابق، ص٩١٤.

وفيه يشرح مسألة الخط بقوله: "أي المراد أن الخط في الرمال لا مانع منه إذا كان علماً موافقاً لما نقل نقلاً صحيحاً عن الأنبياء ولا سيما إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما إذا كان كهانة دجلاً فهو مرفوض. وأصل الخط أن يخط الضارب بالرمال ثلاثة خطوط ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى، ويقول يكون كذا وكذا. ومن الواضح أن الرسول الكريم ينهى عن كل ضروب الكهانة. أما تسامحه بالخط في الرمال فمردّه نسبة هذا إلى بعض الأنبياء كإدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ".

إلى العلم بالغيب، وحتى لا يقعوا -بسبب جهلهم بالوجه الصحيح لخط الرمل- فريسةً لاستغلال الدجالين والمشعوذين. إنّ مثل هذا النص، بهذا الفهم الصادر من رجل علم شرعي ومكانة شرعية يُعْتَدُّ بها، يقدِّم دعامة ويفتح منفذاً ويصنع مشجباً "شماعة" لأصحاب الأغراض.

والقرآن الكريم قد وضَّح -دون لبسٍ- وجه الحقِّ في هذه الأمور، وصدق الله ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨] ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ ١٧٩﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولا يختلف عن هذا كثيراً ما رواه الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سأل رسولَ الله ﷺ أناسٌ عن الكهان فقال: ليسوا بشيء. فقالوا: يا رسول الله إنّهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مئة كذبة". وفي رواية للبخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشيطان السمع، فيسمعه، فيوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم".

ووفقاً لهذا الحديث فإنّ الكهان يعلمون شيئاً من الغيب، يسمعه الجان والشياطين، ويوحون به إليهم، ثمّ هم يضيفون لما علموا من الغيب ما شاؤوا من الكذب، والقرآن الكريم يجزم أنّ الغيب لا يعلمه إلا الله، ويقرر أنّ الحال

قد تغيَّـر، وأنّ الاستماع مُنِعَ مع الرسالة الخاتمـة وبلوغ الإنسان مرحلة الرشد والمسؤولية الكاملة التي يحمل بها أمانـة استخلافه وإدارة شؤون عالمه، فلا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن: ١]؛ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

إذا كان القرآن الكريم يوضِّح بأجلى صورةٍ أنّ عالَم ما بعد رسالة "الكتاب" قد بلغ فيه الإنسان مرحلة الرشد، وأصبح يحمل كامل مسؤولية قراره وإرادته، فقد أصبح إذن في عهد الكتـاب والعلم والعالميـة، هو-وليس سواه- يدير عالمه ويُسْأَل عنه، وأنّه لا مجال بعد رسالة "الكتاب" لأيّ قوةٍ من قوى العوالم الأخرى أن تتدخل بأقدار الله وسننه في مجرى حياة الإنسان وعالمه، فلا يمكن لأحد أن يطلع على غيب عالم البشر للتحكم في سير حياتهم، فقد أُحْكِمَ الرصدُ، وأُحْكِمَتْ حمايـةُ الرسلِ وما ينـزل إليهم من الوحي، ومن اجترأ على محاولة استراق السمع فإنّه مقضي عليه من قِبَلِ نظامٍ مُحْكَمٍ من الشهب والرجوم الثاقبة التي لا تعجز ولا تخطئ، وأنّ الله بذلك أراد بالإنسان الخير ومنع تسلط العوالم الأخرى على عالمه وإعاقته عن حمل مسؤوليته. وليس عبثاً أنّ رواية سورة الجن كانت بصيغة الماضي (كنّا). أمّا (الآن) فإنّ الأمر قد تغيَّـر، بل إنّ إخبار الرسول ﷺ عنهم وعن عالمهم كان بالرواية لا بالمشاهدة: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ۝١﴾ [الجن: ١].

فإن صحت مثل هذه النصوص؛ فهل هي إذاً ممّا يمكن تأويله على أنّها حوارات قُصِدَ بها أشخاصٌ بعينهم، وعقليات بعينها أراد النبي ﷺ أن يصرفها عن إلحاق الضرر بنفسها ولكن بأسلوب ومداخل تناسب عقولهم وقدراتهم النفسية والعقلية، وبذلك تكون نصوصاً ذات طبيعة خاصة هي في ضرورات خطاب الناس، وتكون من باب أخف الضررين بهم؟

روى البخاري عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله". وروى مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". إنّ علينا أن نحكِّم ليس فقط نقد السند؛ بل ونقد المتن، وأن نحكِّم التأويل ومنهجه؛ بحيث يكون القرآن الكريم ومقاصده ومفاهيمه هي الحَكَمُ في قبول ما سوى القرآن الكريم من النصوص والاجتهادات والتأويلات، ونسدّ بذلك -وعلى أساس من روح الشريعة- كل باب يتأتى منه الخلط والتشويه، ويكون مشجباً للخرافة والشعوذة والتلوث الفكري والثقافي.

إنّ السنّة النبوية الصحيحة كنـز غني، ولسنا في حاجة إلى زيادته بما لا نجزم بصحته. أمّا ما صحَّ معناه ولم يثبت سنده من النصوص فنقبله فقط من باب الحِكَمِ والآثار نظراً لما يصح من معانيه ويتفق مع روح الشريعة.

عالَم ما قبل الرسالة المحمدية وعالَم ما بعدها:

إننا ندرك من مجمل الوحي، ومن واقع المرحلة الإنسانية التي نمر بها، أنّ عالَم ما قبل الرسالة المحمدية يختلف عن عالم ما بعد الرسالة المحمدية. إذ كان الأول عالماً متسماً بالخوارق والمعجزات، كما كان متسماً بالخرافة، فيما أصبح

الثاني متسماً بالكتاب والعلم والسنن.

ولعل من المفيد هنا أن نناقش فهم بعضهم لما ورد في القرآن الكريم بصدد تسخير الشياطين لنبي الله سليمان، وبصدد "الملكين"[1] ببابل هاروت وماروت، وجعل ذلك مشجباً يتكئ عليه الكثيرون لتمرير قدر هائل من فكر الخرافة والشعوذة، والتغرير بالعامة والبسطاء، والإيقاع بهم في شباك وأحابيل الأدعياء والمشعوذين والدجالين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ [بفتح اللام وبكسرها] بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ

---

(١) يذكر محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٤٥ - ٧٥٤ هـ) في كتابه "البحر المحيط" في قراءة "الملَكين" ما نصّه: "قرأ الجمهور بفتح اللام، وظاهره أنهما ملكان من الملائكة، وقيل هما جبريل وميكال، وقيل ملكان غيرهما هما هاروت وماروت."

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو الأسود الدؤلي والضحاك وابن أبزىٰ "المِلكين" بكسر اللام، وقال ابن عباس: هما رجلان ساحران كانا في بابل؛ لأنّ الملائكة لا تعلّم الناس السحر. وقال الحسن: هما علجان ببابل العراق. وقال أبو الأسود: هما هاروت وماروت، وهذا موافق لقول الحسن. وقال ابن أبزىٰ: هما داوود وسليمان علىٰ نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام. وقيل: هما شيطانان. فعلىٰ قول ابن أبزىٰ تكون "ما" نافية، وعلىٰ سائر الأقوال في هذه القراءات تكون "ما" موصولة.

ومعنىٰ الإنزال: القذف في القلوب، وقد ذكر المفسرون في قراءة "الملَكين" (بفتح اللام) قصصاً عجيبة غير معقولة من الفسق والغرام والكفر، وأنّهما في بابل يعذبان، ممّا يناسب تلك الفترات التاريخية وتقبلها لكثير من الخرافات وتصيد الروايات والعجائب بسبب تفشي الجهل والخرافة وعجز الفكر. وعلىٰ كل حال، فقد انتهىٰ أبو حيان إلىٰ ما يتفق فيه مع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين لخص كل تلك التهريفات فقال: "وهذا كله لا يصح، والملائكة معصومون". انظر:

- أبو حيّان، محمد بن يوسف. **البحر المحيط**، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢م، مج١، ص ٥٢٨.

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولو أمعنا النظر في الآية السابقة لوجدنا أنّها تتحدث عن أمور وأحداث وممارسات تمت قبل الرسالة المحمدية. فالإنسانية قبل هذه الرسالة كانت في جوهرها بدائية مجزَّأة إلى أقوام معزولة ومحدودة العلم والمعرفة، وقد توالت علي تلك الأقوام والأمم الرسالاتُ والتوجيهُ؛ بما يأخذ بيدها نحو الترقي الإنساني، وصولاً بها إلى المرحلة المحمدية العلمية العالمية، ولذلك كانت الخوارق إحدىٰ متطلبات المرحلة البدائية، وكانت وسيلةَ الأنبياءِ والرسل في توجيه حياة أقوامهم والوصول بواسطتها إلى قلوبهم وعقولهم التي هي في جملتها ساذجة، وإيجاد اقتناعات محددة لديهم نحو الرسول والرسالة، وهو ما توضِّحه سورة الجن.

وتوضِّح آية سورة البقرة (١٠٢) الآنفة الذكر أنّ ما سُخِّر لسليمان من أعمال الشياطين، وما سخر من قوىٰ الطبيعة، وما ذُكِر في مواضع أخرىٰ من القرآن الكريم، هو من باب العون الإلهي والخوارق النبوية، دون أيّ مساس بعقيدة سليمان ولا بإيمانه، ودون أيّ سعي منه غير مشروع للتواصل مع العوالم الأخرىٰ والشيطانية منها خاصة؛ لأنّ مَن يوصف بأنّه من الشياطين، سواء أكانوا من الإنس أم من الجن فلا بدّ أن يكونوا كفاراً مستكبرين عاصين لأمر ربهم؛ بما جعلهم يستحقون هذا اللقب.

أمّا أمر "الملكين ببابل هاروت وماروت" فإنّه أيضاً يتعلق بفترة ما قبل الرسالة المحمدية بشأن الخوارق وعلاقة عالَم الإنسان البدائي بالعوالم الأخرىٰ حقاً أو وهماً في تدرّجه صوب الكمال الإنساني، والاستقلال، وتحمّل كامل المسؤولية عن أدائه ضمن دائرة الصراع بين الحق والباطل، والنور والظلام، في نفسه، وفي عالمه، ولذلك فإنّه من غير المناسب أن يُفهَم النص القرآني -حتىٰ عن تلك الفترة- علىٰ أنّ الملائكة هم ذاتهم يعلّمون الناس الشر والكفر، وهو ما لا يليق بالملائكة، ولا يقبله الحس الإسلامي المرهف السليم.

وقد أشارت المصادر إلىٰ صحة قراءتها بالمَلَكَين بفتح اللام: مثنّىٰ مَلَك بفتح اللام أيضاً، وجمعها ملائكة، وبكسر اللام: مثنّىٰ مَلِك بكسر اللام، وجمعها ملوك، وقراءة المِلكين بكسر اللام وجمعها ملوك هو في رأيي الأَوْلىٰ، فيصبح المعنىٰ أنّهم كانوا علىٰ شاكلة كهان معابدِ الحضارات القديمة التي كانت سائدة قبل الحضارة اليونانية، وكانوا يختصون أنفسهم بالعلوم والمعارف التي تمثّل لهم مصدر قوة وإبهار أمام عامة الأمة، علىٰ شاكلة ما ترويه قصة سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع سحرة فرعون الذين كانوا بحيلهم يوهمون العامة ويخدعون أبصارهم وحواسهم.

ومن المتصوَّر أنّ هؤلاء الملوك الكهان العُبَّاد الصالحين، حينما كانوا يعلمون الناس ما لديهم من علوم ومعارف ممّا تعلّموه وما ألهمهم الله به، كانوا يحذّرون تلامذتهم من هذه العلوم والمعارف الملهمة والمتوارثة، التي إنْ أساءوا استخدامها يكونوا فتنةً، ويكونوا قد مارسوا الشر والأذىٰ، وأضلوا الناس عن سواء السبيل. وهذا المعنىٰ هو الجدير بالفهم، وهو اللائق بمقام ملائكة الله.

ولعل من المفيد أيضاً أن نذكِّر القارئ بحيل الحركة والصوت والضوء والترتيبات المسرحية في ألعاب السيرك و"سحرة" المسارح، وكذلك في العروض السينمائية التي لولا أنّنا نعلم علم اليقين أنّها صور مفردة متتابعة وأنّها تعرض بسرعة معينة تخدع العين؛ لأقسمنا أنّها حركة حية حقيقية.

هذا مثال لما ينطوي عليه اختلاف النظر، وتضارب الفكر، وتعارض المناهج، من إشكالات ومخاطر، ومن آثار ضارة على عقلية الأمة، وهو أمرٌ قلّما يجلس إليه أصحاب الاختصاصات العلمية المعنية، ويجلون وجوهه، ويسدّون ثغراته، ويرسون بشأنه قواعد التعامل الفكري والتربوي الإيجابي السليم، حتى لا تفسد في نهاية المطاف العقائدُ والعقولُ والعزائمُ، ولا تُصرف أو تنصرف عن هدي القرآن الكريم ومسؤوليات الاستخلاف.

ضرورة التصحيح المنهجي والتنقية الثقافية:

بسبب قصور مناهجنا؛ فإنّ كثيراً ممّا قد لا يصحّ من النصوص، لخلل أو آخر في الرواية أو المتن، قد يصحّ في مجال نقد المتن، وفي مجال دراسة الرجال دراسة مقارنة في ضوء نقد المتن. وبعضها قد يصح، ولكن في ظرفه الخاص الذي قد لا يعلم المطلع عليه اليوم حال المعنيّ به على زمانه، فيخطئ في فهمه، ويلوّث به ثقافةَ الأمة وعقليتَها، ويفتح -بقهر القدسية- باباً للخرافة والشعوذة التي تهدم المسؤولية الاستخلافية، والعقلية العلمية، والطاقة النفسية لأبناء الأمة.

إن الغاية مما سبق ليست أن نجزم في أي أمر من هذه الأمور بالرأي الفصل، بل فتح الباب لحوارٍ علميٍّ منهجي رزين بين العلماء والمفكرين

المؤهلين بمنهجية وعلم وثقافة متكاملة، تحدَّد بها الغاياتُ والأهدافُ، وتعالج أمورها على ضوء روح الشريعة ومقاصدها وواقع الأمة وأحوالها وإشكالاتها، وتُحرَّر الثوابتُ، وتُحتوى المتغيراتُ، وتُواجهُ التحدياتُ، وبذلك نعمل جادين على تحرير مناهج فكرنا وإصلاحها، والانتفاع بما جدَّ من الوسائل والإمكانات، فننقي بها ثقافتنا، ونسد بذلك الطريق على غير مكتملي الأداة وعلى مرضى النفوس وأصحاب الأغراض.

ثالثاً: الإشكال التربوي: النهج والمنطلق

إذا شئنا العمل الجاد من أجل تحقيق قدرة الأمة على الإصلاح والتغيير، والعمل على تمكين مشروع الإصلاح الإسلامي من أهدافه السامية، فلا بدّ من العمل على معالجة الإشكال التربوي.

لقد أنجبت الأمة عدداً كبيراً من المفكرين وقادة الإصلاح الذين كتبوا وجاهدوا ولفتوا الأنظار إلى كثير من العيوب التي تعاني منها الأمة، ومع ذلك لم توفّق الأمة حتى اليوم إلى إحداث التغيير المطلوب، والتخلص من العيوب والأدواء التي ما زلنا نعاني منها. ونحن نذهب إلى أنّ هذه العقول النيرة لم تتنبه بما يكفي إلى البُعد التربوي للطفولة، الذي هو أساس التغيير، وبقي الطفل والبُعد التربوي -إلى حدٍّ بعيدٍ- هامشيّين في فكر الأمة وسياساتها ونشاطها الفكري والاجتماعي.

وبانحطاط الفكر التربوي -بصفته جزءاً من انحطاط الفكر السنني الاجتماعي الإنساني- تشوَّهتْ دون قصدٍ الرؤية الاجتماعية الكلّية، وتمكّنت السلبيات والمفاسد الاجتماعية بسبب تفاقم داء الاستبداد والقهر في السياسة

والفكر والتربية، لأنّه لا شورىٰ ولا عدل ولا قدرة دون ثقافة وفكر، كما أنّه لا تنمية ولا تطور دون تربية وتعليم.

ومجتمع القهر والإرهاب والاستبداد هو مجتمع التفرّد والتسلّط الذي ينتفي فيه دور الآخر ومشاركته، ويستبد فيه كل فرد بمن هو دونه ويستعبده، فكل فرد لـه نفسية العبد، وهو مصاب بداء الخضوع لمن هو أقوىٰ منه. وفي الوقت نفسه، وبسبب ما يعانيه من المهانة والخسف، فإنّه إذا اقتدر كان -بحكم ما ألف - نخاساً وطاغيةً علىٰ كل مَن هو دونه وأضعفُ منه. ولا يربط بين أبناء مجتمع العبيد تكافلٌ ولا تعاونٌ، ولكنّها فرديـة وأنانية وتلهف علىٰ المنافع، وتفانٍ في التبعيـة والخضوع والاستبداد، في سلسلة لا تنتهي إلا عند السيد الأكبر والطاغية الأعلىٰ الذي يعبد ذاته، ويخضع بدوره للسيد القوي الأجنبي.

ومن الطبيعي في مجتمـع نفسـية العبيد، وهرميـة الاسـتبداد، وفكر الوصايـة والتفرّد، أن يأتي ترتيب الطفل -بضعفه- في أسفل سلّم الأولويات، كمّاً ضئيلَ الحجمِ والقدرِ، مهملَ القيمةِ والكرامةِ، وليس عدةَ المستقبل وبذرةَ التطور ومحطَّ الأمل وقِبْلَةَ الرجاء. فهذا الكائن عليه دائماً أن يلبي ويخضع، وليس لمثله أن يَسأل أو يُسأل، ولا أن يُناقِشَ أو يُناقَشَ، ولا يُؤْبَه لرغباته الصبيانية، وعليه، دون مساءلة أو اعتراض، أن يقوم بالحفظ والاستظهار والتقليد والمتابعة، فتلك في مجتمع العبيد مناهج التربية ومفاهيمها. وأمّا الإرهاب والعقاب فهما وسائلها وأدواتها الأساسية، المعلن منها والمستتر.

ضرورة مراعاة العلاقة بين المعرفي والوجداني التربوي:

لم يكن هناك -مع هذا النوع من المناهج والوسائل في المعرفة والتربية والتعليم- مجال للخطاب النبوي للطفل، المبني على الرفق والود والحب والعناية والاحترام والتشجيع، ولا مكان للدراسة العلمية الاجتماعية التربوية للطفولة وطاقاتها وإمكاناتها ودورها في الإصلاح والتغيير الاجتماعي والحضاري.

لذلك يجب أن يبدأ الإصلاح الفكري -بكل ما لديه من أدوات ثقافية وتربوية سليمة- بالاستثمار المكثف والمباشر لميدان التربية الذي تتمّ من خلاله إعادة تشكيل الشخصية المسلمة، وتحريرها، وبناء فرد سوي قويم يكون عضواً فعّالاً في جماعة سوية قوية مستقرة متضامنة اجتماعياً، تشتمل على عقلٍ مفكّرٍ متدبّرٍ من الناحية المعرفية، ونفسية مؤمنة حرّة إيجابية وكريمة تتحلى -من ناحية البناء النفسي وجدانياً- بالشجاعة والمبادرة.

وحتى يمكن أن نعيد بناء نفسية الطفل المسلم وعقليته، وإحداث التغيير الإيجابي الذي يمثّل روح الإيمان والتوحيد والعطاء الاستخلافي على أسس علمية متطورة، علينا أن ندرك الثوابت والمتغيّرات في منهج تربية الطفل المسلم، وأن ننمّي ونعمّق البحث العلمي التربوي في مجالاتها، في ضوء الثوابت الإسلامية، بحيث تتجاوب المناهج والوسائل والجهود والاهتمامات التربوية مع نمو المعارف والخبرات، ومع طبيعة المتغيّرات والتحديات، ومع ما يتوافر لهذا الطفل من الوسائل والإمكانات والطاقات لتنمية الصفات والقدرات اللازمة للتفوق والسبق في ميدان القدرة والعطاء.

انحطاطُ الفكر التربوي تبعٌ لانحطاط الفكر السنني:

مع غيبة العلوم الاجتماعية، وعدم الوعي بطبيعة المنهج النبوي التربوي، لم يكن غريباً غياب علوم التربية وأبحاثها ودراساتها في تاريخ الفكر الإسلامي. وصورتها الصحيحة -التي تفسِّر ما آلت إليه الأمة وقدراتها وطاقاتها - تعكس أوصافَ كتاتيب أبناء العامـة الأهلية، وقد كان يتحمّل عبء مصاريفها العامةُ والفقراء، وما كانت عليه أحوال هذه الكتاتيب، وأحوال معلّميها المتردية، ومناهج تعليمها البدائية.

وممّا يفسِّـر -من بعض الجوانب- تراجعنا الحضاري وتقدّم سوانا أنّنا إن دققنا النظر نجد أنّ كل ما ناله تعليم عامة أبناء الأمة وتربيتهم من اهتمام المفكرين والعلماء وأبحاثهم لم يكن إلا نزراً يسيراً من التأملات المجرّدة، والملاحظات الناقدة لمناهج التعليم، وأحوال الكتاتيب، وأساليبها، ووسائلها، وإمكاناتها، وثقافة معلّميها، وقدراتهم المتردية.

ومن الخطأ رسم صورة واقع التربية والتعليم في الأمة من خلال عدد من نصائح الخاصة والسادة والأمراء التي كانوا يوجّهونها إلى مؤدبي أبنائهم في دُورِهِمْ، أو في بعض التأملات من بعض رجال الفكر والعلم، فكل ذلك لا علاقة لـه بواقع التعليم والتربية في لاحق تاريخ الأمة. وتفشي هذه الانحرافات السياسية والفكرية في ممارسات قادة الأمة هو ممّا يعين على فهم تفشي ظاهرة التعليم الخاص والأجنبي للأبناء، ومن ثمّ انحطاط ثقافة عامة الأمة وانحطاط قدراتها في بلاد العالَمِ الإسلامي.[1]

(١) عقلية التسلط والاستعلاء: بين قلّةٍ خاصّة تتمتع بكافة ألوان الامتيازات التي تعزلها عن الأمة، =

رابعاً: بين الماضي والحاضر: الأسس والمنطلقات التربوية

القـدوة: المنهج النبوي في التربية:

حتىٰ نفهم دلالة ما انتهت الأمّة إليه لا بدّ من النظر والتدبر الموضوعي المنهجي فيما بدأت به، وبذلك نعلم حقيقة الأخطاء التي وقعنا فيها، والأسباب التي أدت إلىٰ تراجعنا، ونأخذ منها المواعظ والعبر. وإذا كان الخطاب القرآني أساس فكرنا ومنهج حياتنا فإنّ الخطاب والمنهج النبوي في التربية يجب أن يكونا أساس منطلقنا، نستقيه من السنّة الفعلية، ومن سيرة حياته ﷺ، ومجمل

= وعامةٍ مسخَّرةٍ نصيبها الازدراء والإهمال وانتهاك الحرمات؛ ممّا يجعل العالَم الإسلامي وانتهاك حقوق الإنسان فيه من أهم وجوه تخلّفه وضعف كيانه، ومما يسهّل كذلك مهمة اختراقه والتحكم فيه.

وتفشي ظاهرة "خدم المنازل" ونوعية التعامل معهم، التي فشت في العالم الإسلامي، هي أيضاً صورة أخرىٰ قبيحة لهذه العقلية؛ حيث تكاد تنتفي -عن هذه الفئة عند كثيرٍ من الناس، ودون أيّ وازع من ضمير- جُلُّ الحقوق الإنسانية في الكرامة، وفي الدخل، وفي الراحة، ومن منطلق نظرة استعلائية نحو كائنات منحطة، حتىٰ إنّ بعضهم لا يرىٰ فيهم إلا "جنساً آخر" لا يليق به إلا "الشدة" والمهانة. لا يصح، ولا يقبل أن تبرز المهانة والقسوة في معاملة هؤلاء البؤساء لكونهم في أشد الحاجة إلىٰ ما يلقىٰ إليهم من فتاتٍ حتىٰ يُبقي علىٰ حياتهم.

لا بدّ من تدبر أمر هذه العقليات والممارسات والتشوهات والانحرافات عن مبادئ الإسلام ومفاهيمه في الإخاء الإنساني، وفي الإخاء الإسلامي، وفي العدل والبذل والإيثار، وفي نفوسنا وثقافتنا ومجتمعاتنا؛ وعلينا أن نواجهها بقوة وشجاعة في أصل تنشئة أبنائنا، وفي أصل بنائهم العقدي الوجداني؛ حتىٰ نكون أمة قوية، وحتىٰ نقضي علىٰ آفة التفتت وتجهيل جمهور الأمة وعامتها وإذلالهم وإضعافهم، ومن ثمّ إضعاف الأمة، وتسلط أعدائها، وإذلال فئات عامتها وخاصتها، وقهرها.

إن انتقائية القراءة لتاريخ عهود تخلف الأمة لن يعيننا علىٰ إدراك آفات كياننا ومعرفة أسباب الضعف والانحراف التي تنخر في هذا الكيان، بموضوعية، ومن دون خوف أو وجل.

توجيهاته، ومعالم شخصيته، وأساليب تعامله مع الناس من حولـه، ويضبط فهمنا لدلالاتها منطوقُ القرآن الكريم، ومقاصده وقيمه ومبادئـه، كما نتلمسها أيضاً في أوصاف الرسول ﷺ: شخصيةً، وخلقاً، ورسـالةً.

وقد حدّد القرآن الكريم معالم شـخصية الرسـول ﷺ بالرحمة والود وضبط النفس وحسن الخلق: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: ٤]. ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وروىٰ مسلم عن ابن سعد عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة ولا خادماً، ولا ضرب شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله...". وروىٰ أصحاب الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: "خدمتُ النبيَّ ﷺ (وهو صبي) عشرَ سنين فما قال لي أفٍّ قطُّ، ولا قال لشيء صنعتُهُ لِمَ صنعتَهُ، ولا لشيء تركتُهُ لِمَ تركتَه، وفي رواية "فما سبّني ﷺ قط ولا ضربني من ضربة ولا انتهرني ولا عبس في وجهي ولا أَمَر في أَمْر فتوانيت فيه فعاقبني عليه، فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال: دعوه، لو قُدّر شيء كان." وروىٰ الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم". وروىٰ ابن ماجة والحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي." وفي رواية البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "ما خيّر رسول الله بين أمري إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فما كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله

فينتقم لله تعالىٰ".

وروىٰ الشيخان عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها قالت: "إنّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله". وأخرج الترمذي عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني قال: "اتق الله حيثما كنت". قال: زدني. قال: "أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها". قال: زدني. قال: "خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ". وروىٰ أبو داوود والترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". وروىٰ الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: "ما رأيت أو سمعت رسول الله ﷺ يحدّث حديثاً إلا تبسَّم". وأخرج الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن أبىٰ هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

فما معالم هذا النهج وهذا الخطاب النبوي التربوي لنبي الرحمة ومكارم الأخلاق؟ وما ثوابت هذا النهج وهذا الخطاب؟ وما منطلقاتهما؟

الحبُّ والاقتناع والشجاعة منطلقات الخطاب التربوي النبوي:

لقد كان الحبُّ والمودة والملاطفة والرفق والرحمة واحترام المشاعر الأساسَ الذي ينبع منه النهج والخطاب النبوي التربوي لتنشئة الأطفال وبناء نفسياتهم وكيانهم الوجداني، ومن دون إدراك هذا البُعد وأهميته في بناء الكيان النفسي والوجداني للطفل لن نستطيع أن ندرك وجه القصور في مشروع إصلاح الأمة، وأن نتبين أسباب عدم قدرته علىٰ تحقيق جُلِّ أهدافه الكبرىٰ وبناء الأجيال القادرة علىٰ حمل أعباء التحديات التي تواجهها الأمة.

رأينا كيف خاطب الرسول ﷺ الصبي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكيف أقام بينه وبين الله علاقة حب وتواصل ورعاية، وكيف بَثَّ في نفسه الشجاعة والثقة بالنفس، وكيف حرص وهو في صلاته على رعاية نفس الصغير الذي اعتلى ظهره، فتركه يلعب برهة دون أن يبادر إلى إنزالـه عن ظهره.

لقد كان الرسول ﷺ يحرص على احترام الطفل واحترام مشاعره، وكان إذا مرّ بالصبيان سلَّم عليهم كالكبار، وكان يتفقد الأطفال كالكبار، ويؤانسهم ويهتم بمشاعرهم، ولا يهمل وجودهم في مجلسه، وكان يداعبهم ويوصي بإكرام الأطفال، ويحث على العدل فيما بينهم.[1]

---

(١) عن سهل بن ساعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام (ابن عباس)، وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً. انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٠٤، حديث رقم: ٢٠٣٠.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال "من قال لصبي هاك ثم لم يعطه فهي كذبة". انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١٥، ص٥٢٠، حديث رقم: ٩٨٣٦.

وممّا كان يلفت نظري وينال إعجابي ما كنت أراه من كثير من الأمهات الأمريكيات في تعاملهن مع الصغار حين يصحبنهم إلى الأماكن العامة في الشوارع، وفي الحدائق العامة، وفي الملاعب، وفي الأسواق، فكانت الأم حين ترغب في توجيه الخطاب إلى الطفل وتوضيح أمر له أو عتابه أو توبيخه على تصرف من التصرفات، فإنّها لا توجه الخطاب إلى الطفل منتصبة بقامتها فوق رأس الطفل، بل كانت تنزل وقد ثنت ركبتيها بحيث يصبح وجهها بمستوى وجهه، ثمّ تأخذ في مخاطبته والحديث إليه.

ولا أنسى مشهد امرأة وقد ملأت عربة اليد بما اشترت من البضائع، وبعد أن دفعت الثمن وجاءت إلى باب السوق لتذهب إلى سيارتها، وكان عليها أن تقطع الشارع المحيط بالمحل إلى ساحة موقف السيارات، وهي تمسك العربة بيد وتمسك باليد الأخرى يد طفلها الصغير، =

ويخطئ مَن يظن العنف والسطو باليد أو اللسان وسيلةً سليمةً في التربية، وهي في الحقيقة دليلُ العجز وقصور الأداء التربوي للآباء والأمهات، وتحطيم لشخصية الطفل واحترامه لذاته ولعزة نفسه وكرامته وثقته بها. وما أقسى أن نرى في تقاليد بعض شعوبنا وتراثها سمات شريعة الغاب، وضعف روح الإسلام وخلقه؛ حين تشيع فيها ظاهرة تقبّل السطو البدني من الأقوياء والأكابر، ليس في حقِّ الصغار فحسب، بل يغدو ذلك حقاً لصاحب كل سلطة وسطوة، ويخوّلهم ذلك حقَّ ضرب البالغين من الأتباع وانتهاك كرامتهم الإنسانية، ممّا يجعل ذلك رمزاً وتجسيداً للتدمير العقدي والحضاري والتربوي الذي أصاب الأمة، وهي التي كان يأخذ نبيها الغضب إذا ما امتدت يد رجل على مولاه، فلا يكف غضبه عنه ولا يكفِّر فعلته إلا إعتاقه،[1] بل إنّه يلعن مَن

= فالتفتت إليه وسألته إن كان يرغب ركوب العربة أو السير إلى موقف السيارات، فاختار السير، فأخذت في دفع العربة بيد، ويد الطفل بيدها الأخرى على ما في ذلك من العناء. ولا غرابة مع هذا السلوك التربوي أن يحترم مثل هذا الطفل ذاته عندما يشب ويعتد بنفسه وينشأ متمتعاً بالشجاعة الأدبية والذود عن حقوقه، ولا يسمح بتخطيها والعدوان عليها.

(١) روى مسلم عن أبي علي سويد بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: لقد رأيتني سابع إخوة لي، ما لنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها. انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٧٩، حديث رقم: ١٦٥٨.

وروى مسلم عن ابن مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً خلفي: "اعلم أبا مسعود" فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذ هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: " اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود"، قال فألقيت السوط من يدي، فقال: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" فقلت: يا رسول الله هو حرّ لوجه الله تعالى، فقال: "أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار" انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٨٠، حديث رقم: ١٦٥٩.

يؤلم ويؤذي حيواناً في غير ضرورة،[1] فما بالك بالعنف في التربية؟!

الحبُّ قوة ودافع: تربة العلاقات المؤثرة المثمرة:

إنّ الحبَّ يولّد الثقة والطمأنينة والشجاعة، بل إنّ من مزايا العلاقة القائمة على الحبِّ أنّها تولِّـد خوفاً إيجابياً يحرص فيه الطفل على مرضاة المحبوب: رباً وديناً ونبياً ووالداً ومعلماً ولا تساوره المشاعر السلبية الناشئة عن الخوف السلبي والمرارة والتحدي والرفض التي يسبّبها القسر والعنف، وفَقد مشاعر الحب والاحترام والثقة بالنفس، وافتقاد أحاسيس العدل وكرم المعاملة.

ولقلّة عناية جُلّ جمهور الأمة بالقراءة والاطلاع التربوي من جانب، ولقلّة المتوفر لهم علمياً وتربوياً واجتماعياً من المنظور الإسلامي من جانب آخر، نجد الآباء والأمهات والمربين كثيراً ما يخلطون بين مفاهيم الحبِّ

---

(١) روى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ قال: "عُذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض" انظر:

- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٣٤، حديث رقم: ٢٢٣٦.
- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٦٠، حديث رقم: ٢٢٤٢.

وروى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ "لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً" انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٥٤٩، حديث رقم: ١٩٥٨.

وروى مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ النبي ﷺ مرّ عليه حمار قد وسم من وجهه فقال: "لعن الله الذي وسمه" انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٧٣، حديث رقم: ٢١١٧.

والحرية والنظام، وتبدو لهم هذه المفاهيم كأنّها أمور متعارضة متنافرة، وهي في الحقيقة متلازمة متآزرة.

فالحبُّ لا يعني التدليل المفرط، ولا يعني الاستجابة لكل مطالب الصغير ورغباته، ولا الإغضاء عن كل أخطائه وهفواته وتجاوزاته، ولكنّ الحبَّ الصحيح هو لُبُّ العلاقة التي تقوم بين الطفل والمربي تعبيراً عن مشاعر المودة والعناية والرعاية الصادقة الإيجابية، التي تهدف إلى مصلحة الصغير، وتوفير مختلف الأساليب لراحته ورعايته وتنمية قدراته وبناء نفسيته على أسس إسلامية إيجابية سليمة. وهذا يعني بذل الجهد والصبر لفهم نفسية الصغير والمرحلة التي يمرّ بها، ومعرفة الأساليب التربوية التي يجب أخذها في الحسبان حين التعامل معه؛ بحيث يندفع الصغير إلى السلوك السليم.

الحرية قوة: حدودها وضوابطها:

وبسبب جهل كثير من الآباء بالمفاهيم التربوية، وتقصير كثير من المثقفين والمفكرين والتربويين في أداء أدوارهم العلمية التبصيرية، فقد يكون مفهوم الحرية عند هؤلاء أنّها إلقاء الحبل على الغارب لفعل كل ما يخطر على البال، وتهواه النفس، وتقود إليه النـزوات، وهذا فهم خاطئٌ وواهمٌ، ومن المؤكد أنه سينتهي في نهاية المطاف إلى الفوضى والفساد والتحلّل والانهيار.

فالحرية الإنسانية لها حدود وقواعد وثوابت تنبع من طبيعة الإنسان وطبيعة مجتمعه، ولا بدّ من فهمها ومراعاة حدودها. فالإنسان ومجتمعه منظومـة مركبة لها قواعدها وثوابتها وحدودها التي يجب مراعاتها وعدم

تخطيها وإلا انهارت المنظومة كلها، يتساوى في ذلك منظومة المجتمع الإنساني مع منظومات الذرة والخلية والمجرة. ولكنّ هذا يعني أيضاً أنّ هناك مجالاً للحرية والخيار في حدود طبيعة منظومة المجتمع الإنساني.

فليس لإنسان أن يحرم إنساناً آخر من حقّ الخيار ومسؤوليته. ولكن من واجب المجتمع أن يضع أعضاءه أمام واجباتهم ومسؤولياتهم، وأن يقوم بتعليمهم وتوعيتهم، وأن يفسح الطريق أمامهم لممارسة حريتهم المشروعة في القيام بواجباتهم ومسؤولياتهم، وأن يلزمهم حقوقَ المجتمع وحدود منظومته وثوابتها وقواعدها كما يقررها قانون المجتمع وشريعته وَفْقَ مبادئ الشورى وحكمة جماعة الأمة، لأنّ جوهر الحرية هو القدرة -دون عوائق- على أداء الواجبات، وحمل المسؤوليات، والقدرة على تعبيد النفس للحق والقيام بأعباء الاستخلاف والعمران على طريق الحق والعدل والإحسان.

ولذلك لم تكن عبثاً حرية الدين والعقيدة والفكر في الشريعة الإسلامية، ولم يكن عبثاً أنّ الشريعة والحدود لا تطارد الناس في أسرارهم وخاصة تصرفاتهم فيما يتعلق بطبائعهم وهوى نفوسهم، فذلك متروك لضمائرهم وتربية نفوسهم ومراجعة هفواتهم، ولا يؤخذون إلا بالمجاهرة وأذى الآخرين بإشهار المفاسد، بل إنّ الشريعة تعاقب مَن يراقب هفوات الناس، ويتتبع عوراتهم، ويكشف أستارهم، ويروع نفوسهم.

والإسلام يتفق مع كل العقلاء على أنّ المقصودَ بالحرية إفساحُ المجال لكل إنسان لكي يحقّقَ مصالحه ويتصرّفَ وَفق اقتناعه بما لا يضر بالآخرين. أي إنّ القصد من ممارسة الحرية الإنسانية هو قصد إيجابي في حدود المصالح

المشتركة للجميع؛ والتي تقررها القوانين وَفْقَ اقتناع الجماعة ورؤيتها الجماعية على أساس الشورى الإسلامية.

وما يفرّق بين الإسلام وسواه من المجتمعات في العالم المعاصر أنه الدين الوحيد الذي يملك رسالة ربانية محفوظة، تقرّر -عن العلم الرباني الكلّي المطلق- ثوابتَ الصلاح والإصلاح للمجتمع الإنساني وكلّياته في شبكة علاقاته الإنسانية، وفي مداها الآني والآجل، وهذا لا يتأتى إلا من خالق الكون وصاحب العلم الكلّي بما خلق وأبدع، يشهد على صدقها علاماتُ النبوة للرسول ودلالاتُها ومصداقيةُ الرسالة على مدى الزمان والمكان:[1] ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

ولذلك لم يكن هناك بدٌّ أمام الأمم، التي خذلتها رسالاتها المحرفة، من الخلط والاضطراب وعدم القدرة على معرفة حدود حريات منظومة المجتمع الإنساني؛ بسبب افتقارهم إلى الثوابت، ولعدم قدرة الجزء على الإحاطة بالكل، وباءت محاولاتهم في معرفة هذه الحدود وتلك الثوابت بالإخفاق، وأصبحت أوروبا عاجزة عن تعويض ما يتساقط من موروثاتها وتقاليدها من سالف تأثير المسيحية والإسلام، وأصبح إلـه كل فرد هواه، وتخبطت نظراتهم واقتناعاتهم، وتفككت عرى وشائجهم، وانتشر التبذل والفساد، وانهارت الأسرة، وانطلقت قوى العنف والشهوات المدمرة من عقالها، وأصبح كل فرد -بحسب

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. "تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية"، **مجلة التجديد**، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، السنة ٢، العدد ٣، ١٩٩٨م.

معرفته وهواه- يقرّر ما يأخذ وما يدع، دون حاجة إلى علم أو دليل، ودون قدرة على معرفةٍ موثوقةٍ بالعواقب أو حساب للآثار، وأصبح العقلاء -قبل سواهم- لهم في كل يوم رأي يضربون به على غير هدىً أخماساً في أسداس.

لقد حاول الغربيون الكشف عن مفهوم القانون الطبيعي، لكنّهم فشلوا، لأنّ تلك قضية كلّية لا يسعها ولا يحيط بها نظر الجزء، ولذلك فإنّهم ما زالوا في كل يوم يخرجون بنظرية، وفي كل يوم يقومون باستدراك، وفي كل يوم يظهر مذهب ومدرسة. وأصبح الملموس فقط هو آثار التخبط في التفسخ والعنف والجريمة والعجز عن معرفة ثوابت منظومة المجتمع الإنساني وحدود حرية الإنسان، وما يجب التزام أعضاء المجتمع به للحفاظ على المنظومة الاجتماعية وحمايتها من التفكك والانهيار الذي لن يدرأه عنهم هديرُ الآلات، وكثرةُ الأدوات، وفتكُ الأسلحة والذخائر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

إنّ الغرب اليوم -على ما هو عليه من حال اجتماعي وأخلاقي- هو في أشد الحاجة إلى الوحي الإسلامي المحفوظ ليعينه على معرفة حدود الحرية في المجتمع وحدودها.

أمّا الأمةُ الإسلامية، التي ما تزال ترتبط بالوحي المنزل وكلّياته، فإنّ جمود فكرها وموروثاتها وما انتهت إليه من استعباد واستبداد وجمود؛ قضى على مفهوم الشورى والحرية في مجتمعاتها، وأورثها فكر الوصاية وخنوع نفسية

العبيد؛ ما يجعلها بادئ ذي بدء في حاجة إلى التخلص فكرياً وتربوياً من هذا الفكر الاستبدادي الموروث؛ لاستعادة حسّ الحرية الراشدة والشجاعة الأدبية الدافعة، وإقامة مجتمع الشورى ومؤسساته؛ أي إنّ الشعوب الإسلامية في حاجة إلى حرية الانضباط في مواجهة حاجة الغرب إلى انضباط الحرية.

جوهرُ النظام والانضباط: التعوُّد وحسّ الكرامة والمسؤولية:

إنّ النظام والانضباط -تربوياً- لا يعنيان القسر والإذلال والإرهاب والتبعية والطاعـة العمياء، بل هما بالدرجة الأولى تعويد النفس وتربيتها على أداء الحقوق، وتحمّل المسؤوليات، وإمساك الإرادة الإنسانية بزمام النفس وقواها، ودفعها في الاتجاه الذي يليق بالكرامة الإنسانية.

وفي الحالات الـمَرَضِيَّـة التي قد تتطلب معاقبة الطفل عقوبة بدنية فإنّ ذلك يجب أن يتم ضمن برنامج علاجي تربوي يتعامل مع أسباب الحالة، وتلافي ما سبق فيها من تقصير، ومن ذلك ما يتعلق بالبيئة المحيطة بالطفل، وبالعوامل التي تسببت في حالته المرضية، وسابق أسلوب تعامل القائمين على تربيته. وفي حال الحاجة إلى عقاب بدني يتوجب ألا يتم ذلك إلا من قِبَلِ ولي أمر الطفل، وهو أمر يجب أن يتم بعد أن نستنفد كافة الأساليب الإيجابية، والتدرّج حسب الحاجة في أساليب العقاب: من إعراضٍ وجفوة، ثمّ لفتِ نظرٍ، ثمّ توبيخٍ وشيء من الحرمان من المزايا والمحببات، وذلك إذا كنّا فعلاً حريصين على سلامة نفسية الطفل والمحافظة على كرامته الإنسانية.

وشأن الطفل في موضوع العقوبة البدنية أكثر خطورة من شأن البالغ، فليس من الكرامة في شيء استصغار أمر الطفل واستضعافه، والاستهانة به

وبكرامته، وإنزال العقوبة البدنية به كلما بدر منه خطأ صَغُرَ أم كَبُرَ، على غير الحال -عادةً- في التعامل مع البالغ، لما تتركه تلك العقوبات في نفسية الطفل وشخصيته في مرحلة التكوين من تشوهات وآثار سلبية مستقبلية مدمرة.

إنّ تغليب الاهتمام المعرفي بحشو رأس الناشئة بالمعلومات واستظهارها، مع ضعف الاهتمام بالجانب النفسي والوجداني، وضعف ملاحظة آثار المعرفي النفسية والوجدانية في تكوين عقلية الناشئة ونفسيتهم وأخلاقياتهم، أشبه بمن يصب الماء الزلال في خزان الوقود، فيعوّق الحركة، ويتلف الطاقة، ولا يروي الغليل.

فالحبُّ هو التربة التي تنمو فيها العلاقات المؤثرة المثمرة، بها ينشأ الولاء والثقة والتعلّق بين الناشئ والمربي، فبقدرِ حرص المربي على منفعة الطفل، والتواصل معه، والتودد إليه، وتشجيعه، وتقدير جهده، بقدرِ ما يتعلق الطفل بالمربي، ويثق به، ويحرص على إرضائه ونيل ثقته، ممّا يجعل الطفل أرضاً خصبة للزرع، فتَسْهُلَ مهمة المربي الحصيف في الأخذ بيد الطفل، والمضي به قُدُماً على مدارج قدراته في السعي نحو الأفضل والأعلى والأجدر.

مراحل نمو الطفولة الأساسية ومنطلقات التعامل معها:

والمربي القدير يهتم قبل كل شيء بالتعرف على الصفات والقدرات العقلية والنفسية والوجدانية والجسمانية للطفل؛ حتى يأخذ بيده لتنمية قدراته في تلك المرحلة، وتكوين عقليته وبناء نفسيته ووجدانه، من أجل بذر أسمى القيم، وتفجير أعلى الطاقات، في حدود خصوصية الطفل وإمكاناته الذهنية والنفسية

والبدنية، بحيث لا يكلفه ما لا يطيق، كما لا يترك طاقاته تضيع هدراً.

ومن **طبيعة الطفل دون السابعة** أن يستجيب للمناغمة والتعويد، وهذه المرحلة تتسم بالحاجة إلى تكوين أبسط الخبرات وتكرارها، وتتميز بضعف القدرة على التركيز والمتابعة والتذكر، ولذلك كانت المناغمةُ والحوارُ والملاعبةُ والصبرُ والتكرارُ أساسَ التربية في هذه المرحلة. ومن المهم فيها ألفة الطفل لمربيه، وحبّه لـه وثقته به، وثبات خطة المربي، ومعرفته لما هو مطلوب من الطفل؛ حتى يتحقق عن الطفل حسّ الأمن، وتتاح لـه فرصة التعود، وهذا يكون حين لا تتعارض توجيهات المربي ولا تتفاوت، ولا ينقطع خيط تعويداتها، بحث يأنس الطفل ويعلم ما هو مطلوب منه.

ثمّ تأتي **مرحلة التمييز** في حوالي السابعة من العمر. وهي تستلزم جوَّ علاقةِ الحب والمودة والثقة والولاء الملموسة، والتعبير عنها بمختلف الوسائل. وفيها يستمر المربي في المتابعة الصبورة، وفي تعويد الطفل على العادات والأساليب الصحيحة والأخلاق الحميدة في التعامل مع مَن حوله من الصغار والكبار، وتوجيهه إلى الألفة والمشاركة، واحترام حقوق الآخرين، والتعاون معهم، وبذل الجهد لإنجاز الواجبات، وربط مشاعره وإنجازاته الإيجابية بمدى تحقيق هذه الغايات في سلوكه، وفي علاقاته مع الآخرين.

ومع بلوغ الطفل سنّ العاشرة تبدأ -بتفاوتٍ- مرحلةُ النضج الجسدي والنفسي لديه، وعندها يجب أن يبدأ المربي بتعويد الطفل على تحمّل تكاليف المسؤوليات، والتطلّع الإيجابي للسبق والتميّز الإيجابي، وفتح آفاق المعارف أمام نفسه المتطلّعة إلى المعرفة، والشغوفة بالاستكشاف، والمولعة بالإنجاز

والإبداع، وبالرغبة في التميّز وتحمّل المخاطر؛ ولتحقيق هذه الأهداف يجب توفير كل وسائلها المدروسة، والحرص -في الوقت نفسه- على عدم تعرّض الطفل -بسببها- لغير المحسوب حسابه من المخاطر أو الإحباطات.

وهكذا، فإنّ الحب في كل مراحل الطفولة هو عماد التربية السليمة الناجحة، مع استئثار التعويد وضبط المنهج التربوي بنصيب الأسد.

أمّا **مرحلة المراهقة** ففيها يستولي على نفس الطفل حبُّ المعرفة وطلب الاقتناع وحبُّ الاستقلال وتلمّس الطريق بروح الاستكشاف والتسامي، في الوقت الذي يتعرّض معه لتغيّرات جسدية ونفسية ووجدانية ليس لـه سابق خبرة ولا معرفة بالتعامل معها، ممّا يثير الاضطراب في نفسه وفي علاقاته، وتتنازعه الأحاسيس، وقد تدفعه إلى الانطواء واستيلاء مشاعر الخجل عليه، أو إلى العكس من ذلك، فقد تدفعه إلى العصيان والصدام والانفلات.

ومن خلال التواصل وإفساح الصدر والمجال لمشاعر الاستقلال والإنجاز والاستكشاف وطلب المعرفة، وفي ظل الرعاية، وتوفير المناخات النظيفة، والمتابعة الرؤوفة، والتوجيه اللبق، والخُلطَات السليمة، يمكن تحقيق النتائج الإيجابية، وبها يتم التفتح والتحكم في الطاقات والقوى المتفجرة في كيان الصغير.

ومع النضج وبلوغ ريعان الشباب وطاقاته وتطلعاته والجرأة في سلوك فجاج الحياة؛ فإنّ الثقة والتشجيع، وإلقاء عبء المسؤوليات على الأكتاف الشابة هي ما يحتاج إليه الشاب ليكوِّن خبراته، ويشق طريقه في الحياة: عضواً

قادراً نافعاً، وإنساناً مبدعاً متميّزاً بالمبادرة والطاقة الوجدانية، والقدرة على تحمّل المسؤوليات، بالقوة والأمانـة اللائقـة بالمسلم المستخلف.

إنّ عنصر الاقتناع والتشجيع والاحترام وإفساح المجال للمبادرة والإبداع وتحمّل المسؤوليات هي أساس الجانب الجمعي في بناء الشخصية الإيجابية. وإذا تعهد المربون نفوس الأطفال والشباب بالعناية والرعاية في هذه المراحل، يكونون قد أفلحوا في بناء سواعد القوة والقدرة والأمانة، وصنعوا سواعد الصلاح والإصلاح، وإلا فلا مجال دون ذلك لميلاد جيل حملة الرسالة، ولا مكان لمجتمع القوة والتكافل والشورى والكرامة.

صفات المربي الناجح:

إن على المربي إذا شاء أن ينجح في مهمته أن يتسلح ويتلبس بالمعرفة والحب والإكرام والاحترام، وبالعدل والصبر والبذل، فهذه هي الأسس التي لا بدّ منها لتربية العقول والنفوس وإعدادها لتحمل المسؤوليات، وهي التي تكوِّن معادن النفوس في كل أمـة وفي كل أرض: "تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا."[1]

فالتربية الصحيحة والمعدن النفيس والبناء النفسي القويم إنّما يتعامل مع أصل طبع الإنسان وفطرته، بغض النظر عمّا إذا كان هذا الإنسان في جاهلية أم إسلام. فالإسلام والفقه بمقاصده السامية يوجّه تلك الطاقة ويوظّفها نحو

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٨٨، حديث رقم: ٣٣٠٤. انظر أيضاً:
- الشيباني. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١٦، ص٤٦١، حديث رقم: ١٠٧٩١.

الخير والإنجاز الخيّـر. أمّا إذا لم يكن ذلك البناء النفسي وتلك الطاقـة الوجدانية حاضرة فلن يجدي العلم والفقه في الدفع إلى العمل والتضحية والبذل، إلا بالأدنى الأقل.

العلم والمعرفة ضروريان لنجاح المربي والتربية، ومن دون العلم والمعرفـة بنفسية الطفل وبمراحل نموه لن تجدي عواطف الحب، بل ربما كانت السبب في ضياع الطفل وسوء تربيته، فينشأ عاجزاً مدلّلاً أنانياً نرجسياً لا يستطيع أن يقيم علاقات سوية مع مَن سواه، وكما يقولون "عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ من صديقٍ جاهلٍ". وكم من دُبٍّ جاهل قضى بكل الولاء والحب على صديق نائم ليزيل عن رأسه ذبابة يخشى أن تزعج منامه.

والعدل هو الأساس المتين الذي يستقر عليه الحبُّ والتكريم والاحترام وفاعلية التوجيه ما بين الطفل والمربي، لأنّ العدل هو محك مصداق مشاعر المربي نحو الطفل، ولن يستطيع الطفل أن يصغي لتعابير الحب ولا لمظاهر التكريم إذا لم يصاحبها إحساس بعدل المربي، وعدم التحيّزِ وتمييزِ طفلٍ على آخر، أو فئة على أخرى.

والصبر والتربية صنوان لا يفترقان، لأنّ العجزَ والقصورَ، والتجربةَ والخطأَ، وحبَّ الاستطلاع، والتجريب، هي من صفات الطفولة التي لابدّ من التعامل معها من قِبَلِ المربي بروح إيجابية، وهذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه المربي لكي ينمو الطفل، بتكرار محاولاته، والتعلّم من أخطائه، واستكشاف طاقاته ومحيطه، ودون الحلم والصبر لن يثمر حبٌّ، ولن يفيد توجيهٌ، ولن تستقر عادةٌ، ولن يقوَّمَ سلوكٌ، ولن تنمو قدرةٌ.

ودون البذل والحرص على رعاية الطفل وتوفير حاجاته فليس هناك حبٌّ ولا إكرامٌ ولا عدلٌ، وبالحبِّ والبذل والصبر كانت الجنة تحت أقدام الأمهات.[١] ونال الوالدان مقام البر وحسن الصحبة.[٢]

إن حُسن اختيار المعلمين للأبناء وإكرامهم وتكريمهم يُعَدُّ أحد أهم واجبات الآباء والمجتمع. والأمم التي تحسن فيها تربية الأمهات، وتعزُّ مكانتهن، ويتميّزُ فيها معلموها، تتميّزُ أجيالها ورجالاتها. والأمم التي تنحط فيها مكانة نسائها، وتتدنى تربيتهن، وينحدر فيها نوع معلّميها وإمكاناتهم، ويُحَطّ من قدرهم، تنحط ثقافة أبنائها وأخلاقهم وقدراتهم. وما استثمر الآباء والأمم فيما هو أهم وأعظم من الاستثمار في مجال التربية والتعليم.

لقد كان الرسول ﷺ المثل والقدوة في داره ومسجده وخطابه وتوجيهه وإرشاده وصحبته، وَحَرِيّ بالمسلمين أن يعوا دروس النهج والخطاب النبوي التربوي بشأن المرأة والطفل؛ لإعادة بناء الأجيال المسلمة على سمو الإيمان وقوته، وعلى جهاد العمل الصالح وتزكيته.

---

(١) روي من حديث معاوية بن جاهمة أنّه جاء النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك؟ فقال: هل لك أمٌّ؟ قال: نعم، قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها. انظر:

- النسائي. **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٦، ص١١، حديث رقم: ٣١٠٤. والحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي، وأقرّه المنذري.

(٢) روى الشيخان أنّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ من أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك. انظر:

- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٢٧، حديث رقم: ٥٦٢٦.
- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٧٤، حديث رقم: ٢٥٤٨.